توصيفات المؤرخين العرب والمسلمين للداوية

فترة الحروب الصليبية (٤٩٠-٥٨٩هـ/١٠٩٧-١١٩٥م)

Descriptions of Arab and Muslim historians for medicine

The period of the Crusades (490-589 A.H. / 1097-1195 A.D.)

د. عمار حسون عبو العكيدي
مدرس
د. صفوان طه حسن الناصر
أستاذ
جامعة الموصل–كلية التربية للعلوم الانسانية–قسم التاريخ

Dr. Ammar Hassoun Abbou Al-Akidi
Teacher
Dr. Safwan Taha Hassan Al-Nasser
Professor
University of Mosul- College of Education for Human Sciences- Department of History

Abboammar87@uomosul.edu.iq
٠٧٥١٨٦٠٦٣٣٦

تاريخ الاستلام ٢٠٢١/٢/٧
تاريخ القبول ٢٠٢١/٣/٢٤

الكلمات المفتاحية: توصيفات، الحروب الصليبية، الداوية، المؤرخون، فرسان.

Keywords: Descriptions, Crusades, Dowry, historians, knights

الملخص

تميزت فترة الحروب الصليبية بالنشاط المعرفي والوجداني جراء الصراع المتصاعد بين المسلمين الممثلين للشرق، والوجود الصليبي الممثل للجانب الغربي على علاته ، فقد فرض الشرق على الغرب نمطا من التعامل دفعه الى ايجاد حلول آنية ومستقبلية ، ومن مجمل ما شهده الشرق الاسلامي بمؤرخيه الحرب مع العدو الصليبي ، وكيفية التعامل مع أفراده وجماعته العسكرية والدينية وحتى المجتمعية ،وكان منهم هيأة فرسان الداوية (فرسان المعبد) .

ويشهد للداوية القسوة والقوة في المواجهة والثبات في المعارك ، فكانوا أشد الفرق العسكرية على المسلمين في القتال ، وذلك بشهادة أغلب المؤرخين المعاصرين للحروب الصليبية، فوصفوا بأبشع العبارات التي تؤكد كراهية المسلمين لهم ، ونادرا ما وصفوا بالأوصاف الجميلة ، وكما هو معلوم فكل وصف للعدو حين الحرب هو معكوس لديه فالقسوة شجاعة لديه والمكر حسن تدبير.

Abstract

The period of the Crusades was characterized by cognitive and emotional activity as a result of the escalating conflict between the Muslims representing the East and the Crusader presence represented by the western side. The West imposed a pattern of intense dealing to find immediate and future solutions, and from the history of the Islamic East, And how to deal with members and his military and religious and they were even community, including the body of the Knights of the Dua (Templars). The most powerful military teams against Muslims in the fighting, and the testimony of most historians of the Crusades, and were described the worst expressions that confirm the hatred of Muslims to them, rarely described as beautiful descriptions, and as is known every description of the enemy during the war. He is inverse and has a strong courage and has a good cunning measure.

المقدمة

عند قراءة عبارة لابن الاثير– وهو من أبرز مؤرخي المسلمين في عصر الحروب الصليبية– في كتابه " الكامل في التاريخ" : " **وأن يضمن الداوية ذلك لأنهم أهل تدين يرون الوفاء** " ، عند التفاوض من أجل تخليص أسرى عكا ، وما أدراك ما مجزرة أسرى عكا ، إذ قتل ريتشارد قلب الأسد أكثر من ثلاثة آلاف من أسرى المسلمين بعد أن أعطاهم الأمان بدم بارد ، وقد سبقت تلك العبارة عبارات تدل على دناءة ونجاسة الداوية في ذات المصدر وغيره ممن دونوا أحداث تلك الحقبة.

وما يهمنا في هذه الدراسة مدى التناقض في وصف الدناءة والتدين للداوية لدى المؤرخين العرب المسلمين ، والغريب أن اغلب من نقل عن ابن الاثير لم ينقل هذه العبارة والتي انفرد بها ابن الاثير دون تحفظ ، والسؤال الذي يتبادر للذهن ، هل هي زلة كاتب اراد اظهار غدر الصليبيين؟! ، وعدم دخول الداوية في الضمان ، فميزهم لانهم رفضوا الدخول في الضمان لعلمهم بغدر أصحابهم من الطوائف الاخرى ؟، أم كانت حقيقية اعترف بها ابن الاثير وعزف عنها المؤرخون خوفا من تمجيد فرقة أذاقت المسلمين في المعارك سوء العذاب.

ويشهد للداوية القسوة والقوة في المواجهة والثبات في المعارك ، فكانوا أشد الفرق العسكرية على المسلمين في القتال ، وذلك بشهادة أغلب المؤرخين المعاصرين للحروب الصليبية ، فوصفوا بأبشع العبارات التي تؤكد كراهية المسلمين لهم خاصة والصليبيون عامة ، ونادرا ما وصفوا بالأوصاف الجميلة ، وكما هو معلوم فكل وصف للعدو حين الحرب هو معكوس لديه فالقسوة شجاعة لديه والمكر حسن تدبير .

ومن نوادر ابن منقذ صاحب كتاب الاعتبار وصفه إياهم بـ" اصدقائي" ، فكيف صرح بذلك وهو من القلائل الذين يفتخرون بصداقتهم للداوية ؟! ، إن التناقض في المصدر التاريخي الواحد فضلا عن التناقض بين وصف وآخر دفعنا الى الانطلاق في البحث عن جدلية التدين والتنجيس لوصف الداوية ، فقد وصفوا على لسان السلطان الكبير صلاح الدين الايوبي (٥٦٤–٥٨٩هـ/ ١١٧٠–١١٩٥م) بعد الانتصار في معركة حطين٥٨٣هـ/١١٨٧م، بقوله :" انا اطهر الارض من الجنسين النجسين" ، وقد اوضح ابن الاثير ذلك بأن صلاح الدين خص الداوية والاسبتارية بالقتل لشدة شوكتهم نسبة الى باقي القوات الصليبية المقاتلة للمسلمين ، وتكمن اشارة ابن كثير الى اشراف السلطان بنفسه على قتل (مقدمي) أي امراء أو معلمي الداوية ممن شهد لهم بالنكاية والقسوة على المسلمين .

ومما عرف عن الداوية قلة وقوعهم بالأسر ، وقد تعجب العماد الاصفهاني من تسليم الداوية ووقوعهم بالأسر بقوله :" فعجبنا من انقياد أولئك الشُّمس" ، وهنا مديح يراد به

الذم ، وبكل الاحوال فهو يحسب للداوية لا عليهم ، فالشمس وتعني مفردها العسر من الرجال ، أي أن تسليمهم كان مفاجأة لم يتوقعها المسلمون .

وسنستخدم في هذه الدراسة منهج الوصف التحليلي للنصوص مع المقارنة بالمراجع والمصادر الاجنبية التي تحدثت بشيء من التفصيل عن مبادئ ونظم الداوية منذ تأسيسها، مع مراعاة التسلسل الزمني للمصادر العربية الاسلامية ، وقد تتنوع المصادر بين تاريخي وأدبي وبلداني ، وسنسعى جاهدين الى توخي الحذر في الحكم الاسلامي في تلك الفترة على الداوية .

❖ **اول ذكر للداوية في المصادر العربية الاسلامية :**

وهنا لابد أن نذكر أول تصريح بالداوية في المصادر العربية الاسلامية ، فقد ساد الاعتقاد أن أول من ذكرهم من المؤرخين هو العماد الاصفهاني(ت٥٩٧هـ)[١]، ومن ثم ابن الاثير(ت٦٣٠هـ) [٢]، واخذت المصادر اللاحقة منهم ما ورد عنهم أمثال ابو شامة وغيره من المؤرخين اللاحقين ، ولكن من خلال البحث والتقصي وجد أن أول من صرح باسمهم مؤرخ دمشق المعاصر للحملة الصليبية الاولى والثانية ابن القلانسي ، في حوادث سنة (٥٥٢هـ/١١٥٦م) عند التحضير لمعركة قرب بانياس[٣]، إذ تعرضت قوة من المسلمين بقيادة الامير نصر الدين امير ميران[٤]،اخو السلطان نور الدين محمود زنكي، لسرية وافرة العدد

---

(١) عماد الدين محمد بن محمد الكاتب ، البرق الشامي ، تحقيق : فالح حسين ، مؤسسة عبد الحميد شومان ، عمان ، ١٩٨٧م ، ٣/ ١٤٩ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧٧ ، ١٨٠؛ الفتح القسي في الفتح القدسي ، تحقيق وشرح وتقديم : محمد محمود صبح ، الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٥م، ٦٥ وما بعدها.

(٢) عز الدين علي بن ابي الكرم بن الاثير الشيباني ، التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية ، تحقيق : عبد القادر احمد طليمات ، دار الكتب الحديثة ، القاهرة : ١٩٦٣م ، ٤١؛ الكامل في التاريخ ، دار صادر ، بيروت : ١٩٦٦م ،ج ٩ وما بعده .

(٣) بانياس (banyas) :اسم بلدة صغيرة ذات اشجار وزروع ، ولها انهار وجداول ، وهي على مرحلة ونصف من دمشق من جهة الغرب مائلا الى الجنوب ، ينظر ابو الفدا اسماعيل بن علي بن محمود ، تقويم البلدان ،اعتنى بتصحيحه : رينو ديسلان ، دار الطباعة السلطانية ، باريس ، ١٨٤٠م، ٢٣٨-٢٣٩.

(٤) هو نصر الدين أمير ميران بن زنكي بن آقسنقر ، وصف بالشجاعة والاقدام ، لكنه تعجل في الاستيلاء على الحكم أثر مرض نور الدين محمود واعلن نفسه حاكما على حلب سنة ٥٥٢هـ/١١٥٦م، الامر الذي اثار نور الدين عليه بعد أن تماثل الاخير بالشفاء ،وعندما مرض السلطان نور الدين عهد بالولاية من بعده لاخيه قطب الدين ، وبرر عزوفه عن نصرة الدين بقوله :" وان اخي نصرة الدين امير اميران اعرف من اخلاقه وسوء افعاله مالا ارتضي معه بتوليته امرا من امور المسلمين " ،ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ، ٣٥٥؛ مما دعا نصر الدين الى طلب العفو والمسامحة من اخيه لهذه الزلة الا أن نور الدين سامحه لكن بقي في نفسه شيء ، وتدل العبارة التي واسى بها نور الدين أخاه عندما فقد احدى عينيه في معركة بانياس سنة. : " لو كنت تعلم عظم الاجر لوددت أن تفقد الاخرى " توفي نصر الدين بعد تلك المعركة بأشهر قليلة في ذات السنة ؛ ينظر محمد بن عثمان بن قايماز الذهبي ،

حوالي سبعمائة فارس بحسب ابن القلانسي،[١] تكونت من : " ابطال الاسبتارية والسرجندية (يقصد بهم المشاة) والداوية " ، عند بلدة بانياس ، وقد نقل أبو شامة هذا النص الا انه أغفل ذكر ألعبارة في اعلاه [٢]، لكنه ذكر العدد.

أما ابن الاثير فقد تميز هو الآخر بنص بالغ الاهمية ، تمثل ذلك في ذكرهم في حوادث سنة (٥٢٤هـ/١١٣٠م) في كتابه : " الباهر" [٣]،عندما توجه عماد الدين زنكي لفتح حصن الاثارب ،[٤]عندها أشار المؤرخ الى الضيق الذي اصاب الصليبين فجمعوا كل ما لديهم من قوة واستعدوا للمواجهة : " فحينئذ صدقوا القراع وأحسنوا المصاع [٥]وصال ملوكهم وقمامصتهم[٦]وفرسانهم وداويتهم " [٧] ، وتتجلى أهمية النص في أنه من المبكر مشاركة الداوية في المعارك ضد المسلمين ، اذ لاتزال قوة هيأة الداوية ناشئة إذا ما علمنا أن المرسوم البابوي الذي اعترف بهم كهيئة دينية مقاتلة للمسلمين في الشرق صدر في سنة (٥١٢هـ/١١١٨م) أي قبل ١٢سنة من هذه المعركة وأنهم حاولوا بعد مؤتمر تروي

تاريخ الاسلام ووفيات المشاهير والاعلام ، تحقيق : عمر عبد السلام تدمري ،ط٢، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٩٩٨م، حوادث (٥٥٩-٥٦٠هـ) ، ص٣٠٠.

(١) حمزة بن اسد بن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ، تحقيق : سهيل زكار ، دار احسان ، بيروت ، ١٩٨٣م، ص٥٢٠.

(٢) ابو شامة شهاب الدين ابي محمد بن عبد الرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم ، الروضتين في اخبار الدولتين، تحقيق : ابراهيم شمس الدين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ٢٠٠٢م ،١/٣١٠-٣١١ ؛ ينظر ايضا نبيلة ابراهيم مقامي ، فرق الرهبان الفرسان في بلاد الشام ، مطبعة جامعة القاهرة والكتاب الجامعي ، ١٩٩٤م، ٤٠-٤١.

(٣) ص٤١.

(٤) حصن الاثارب : يقع على بعد ثلاثة اميال من مدينة حلب وموقعه بين حلب وانطاكية ؛ ينظر ابو الفدا ، تقويم البدان ، ص٢٣٣، استولى عليه الصليبيون سنة (٥٠٤هـ/١١١٠م) وكان ضرره على اهالي حلب الذين استنجدوا بالأمير عماد الدين زنكي ، ينظر ، ابن الاثير ، الباهر ، ٤١ ؛ الكامل ، ١٠/٣٠٧-٣٠٨

(٥) مأخوذة من صاع أي الشجاع بين اقرانه ؛ ينظر محمد بن مكرم بن منظور ، لسان العرب ، دار صادر ، بيروت ، ١٤١٤هـ، ٨/٢١٤.

(٦) جمع قومص وهو تعريب لكلمة Comes وتعني الرفيق من امراء البلاط اي الامير المرافق للملك ، دون حكام المقاطعات .

(٧) الباهر ، ص٤١.

(Troyes)[١] سنة (٥٢٢هـ/١١٢٨م) الذي عد مظاهرة دينية للاعتراف بهم وتحديد الاطر التي يسيرون عليها وعلاقتهم بالبابوية وحكام مملكة بيت المقدس ، فضلا عن التعاليم الدينية والاجتماعية الخاصة بهم[٢] .

وبحسب وليم الصوري ، فقد اصبح للداوية قوة تعدادها لا يتجاوز (٣٠٠ فارس) بعد سنة (٥٢٢هـ/١١٢٨م) [٣]، وعلى افتراض صحة كلام ابن الاثير في الباهر فعلى الرغم من ان النص لا يرد في الكامل كما هو مثبت في الباهر [٤]، فان القوة التي حاول الصليبيون جمعها لا تزيد بالنسبة للداوية عن(٣٠٠) فارس ، وتجدر الاشارة الى أن المصادر والمراجع الغربية لم تؤيد ما ذهب اليه ابن الاثير في الباهر من مشاركة الداوية في هذه المعركة [٥].

ومما تقدم نستدل ان أول ذكر للداوية في مصدر عربي اسلامي كان (ذيل تاريخ دمشق) لأبن القلانسي (ت٥٥٥هـ) ، على الرغم من مصداقية النص أم لا !!، وأول مشاركة لهم في معركة عسكرية أثناء المواجهة مع قوات أمير الموصل عماد الدين زنكي على إحجام من المراجع والمصادر الغربية والاجنبية ، الامر الذي يثير الشك في حقيقة المشاركة ، إذ ذكر وليم الصوري،[٦] حول نص ابن القلانسي أن القوة التي واجهت المسلمين في تلك الموقعة لم يشارك فيها الداوية ، لكنه اشار الى تولي الاسبتارية حمايتها بعد أن اعطى اميرها نصف وارداتها لهم، وقال رنسيمان عنها : " كما إن نصرة الدين شقيق نور الدين دحر جماعة

---

(١) مجمع ترويس Troyes: وهو المجمع الديني الذي عقد في مقاطعة شمباني الفرنسية ، وحصلت الموافقة فيه على الارتباط بين الفروسية والرهبنة للمزيد ينظر : احمد شهاب احمد ، الاسبتارية والداوية في المصادر العربية الاسلامية ، رسالة ماجستير (غير منشورة) مقدمة الى كلية التربية للعلوم الانسانية ،جامعة الموصل ، ٢٠١٦م ، ص٢٩.
Condar,The Latin Kindom of Jerusalem,London,1897,P202.

(٢)ستيفين هوارث ، فرسان الهيكل (القصة الاساسية) ، ترجمة : ابراهيم محمد ابراهيم ، المركز القومي للترجمة والنشر ، القاهرة ، ٢٠١٣م، ٥٧-٧٠.

(٣) وليم الصوري ، تاريخ الحروب الصليبية او الاعمال المنجزة فيما وراء البحار ، نقله الى العربية وقدم له : سهيل زكار ، دار الفكر ، بيروت ، ١٩٩٠م ،٥٧٧/١.

(٤) الكامل في التاريخ ، ٣٠٧/١٠-٣٠٨.

(٥) لم اجد سوى اشارة بسيطة في مرجع لكينيث ستون، تاريخ الحروب الصليبية (فصول مختارة) ، ١١٨/١؛ ويبدو أنها اعتمدت على رواية المؤرخين المسلمين.

(٦) تاريخ الحروب الصليبية ، ٨٤٤/٢-٨٤٥.

من الاسبتارية قرب بانياس" [١]،أما النص الثاني ؛ فقد أحجمت عنه اغلب المصادر والمراجع الصليبية سوى اشارة بسيطة في كتاب تاريخ الحروب الصليبية وهي لمجموعة باحثين حررها سيتون في مجموعته [٢].

وفي نهاية المطاف إن هذين النصين يشيران بما لا يقبل الشك إلى أن ذكر الداوية في النص له وقع كبير لدى المستمع والمتلقي في ذلك الوقت ، وان كان خطأ غير مقصود ، كما وصف المماليك البحرية لقوتهم وشجاعتهم بـ" داوية الاسلام " [٣].

❖ **قتالهم (جهادهم) ضد المسلمين :**

ومن المصادر الاسلامية المبكرة التي تحدثت عنهم (معجم البلدان لياقوت ت ٦٢٦هـ) فقد أشار إليهم لسكنهم في احد الحصون بقوله :" والديوية الذين ينسب الحصن اليهم قوم من الافرنج يحبسون انفسهم لجهاد المسلمين "[٤] ، ومن المُسَلم به أن كلمة جهاد تخص الموروث الديني للمسلمين، لذا فقد استخدم ياقوت هذه اللفظة للتشبيه لا لذات المعنى المقدس لدى المسلمين ، ومن هنا فكلمة جهاد المسلمين تعني قتالا مقدسا للصليبين لاسيما اذا ما علمنا أن ياقوتاً يتحدث في كتابه لجمهور المسلمين الذين يعلمون فحوى كلمة "**الجهاد**".

إن قتال الداوية للمسلمين كـ(جهاد) جعل مؤرخي المسلمين يصفونهم بالحال وضدة ، ومن ثم يكون وصف المسلمين لهم بالمكر والقوة والقسوة جانبا من جوانب التدين لديهم كيف لا وقد سموا أنفسهم منذ البداية بـ "الفرسان الفقراء للمسيح ولهيكل سليمان " [٥]، علما أن أهم

---

(١) ستيفن رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، ترجمة : البز العريني ،دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٩٧م، ٥٥٢/٣.

(٢) " بعدها قام زنكي بغزو انطاكية وفرض حصاره على الاثارب ... فتقدم بلدوين لرفع الحصار عنها ولكنهم هزموا من قبل المسلمين " ، كينيث سيتون ، تاريخ الحروب الصليبية ، (مجموعة بحوث باشراف كينيث ستون – ماخوذ من بحث تطور الدويلات اللاتنية ، لروبرت .ل.نيكلسون ، ترجمة عبد الرحمن المغربي ،١١٨/١.

(٣) جمال الدين محمد بن سالم بن واصل ، مفرج الكروب اخبار بني ايوب ، تحقيق : جمال الدين الشيال ، مطبوعات ادارة احياء التراث القديم ، المطبعة الاميرية ، القاهرة ، ١٩٥٣م، ٣٧/٢.

(٤) شهاب الدين ابي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي ، معجم البلدان ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٩٥٥م، ٢٦٤/٢.

(5)Stevenson , W.B , The Crusaders in the East ,Second Edition, Beirt,p131

واجب نذر الداوية أنفسهم له هو حماية الحجاج من المسيحيين على اموالهم وانفسهم ، لذا فقتالهم للمسلمين عدوهم واجب مقدس قربة لدينهم(١).

وعند استقراء النصوص التي تدل على أذاهم للمسلمين و عن سبب قتلهم من قبل السلطان صلاح الدين يذكر ابن الأثير : " وإنما خص هؤلاء بالقتل لأنهم أشد شوكة من جميع الفرنج " (٢) وأضاف البنداري عن سبب قتلهم :" لا نفع في ابقائهم ...فلابد من ابادتهما وارداهما فما جرت عادتهما بالمفاداة ولا يقلعان عن المعاداة " (٣) ، كما أشير إليهم قبولهم بالقتل على الدخول في الاسلام ،" ورأى لشدة كفره أن ينقاد للقتل" (٤)، كل هذه النصوص تبين ان من اسباب قتلهم اصراهم على الموت في سبيل معتقدهم كما أنهم لا يفدون انفسهم ، لكن في بعض النصوص يشار الى اطلاق سراح بعض الداوية (٥)، كما استخدم السلطان صلاح الدين مقدم الداوية كرهينة حتى يسلمه بعض القلاع والحصون دون قتال ، وفي موضع لاحق في المواجهة مع الصليبيين يقتل المقدم في معركة عكا سنة٥٨٧هـ/١١٩١م ،بعد أن اطلق سراحه صلاح الدين (٦) .

ولما كان العماد من أفاضل كُتَّاب السلطان صلاح الدين الايوبي لذا فنادراً ما يمتدحهم ، تماشياً مع سياسة السلطان في وصف شرهم وضرورة التخلص منهم ، فاستخدم

؛ ينظر ايضا محمد مؤنس عوض ، تاريخ الحروب الصليبية ، التنظيمات الدينية في مملكة بيت المقدس اللاتينية في القرنين ٦-٧هـ/١٢-١٣م ، دار الشروق ، عمان ، ٢٠٠٤م، ٤١.

(١) هوارث ، فرسان الهيكل ، ٧٥ ؛ مقامي ، فرق الرهبان ، ٢٨.

(٢) الكامل ، ٥٣٨/١١.

(٣) الفتح بن علي بن محمد البنداري ، سنا البرق الشامي ، تحقيق : فتحية النبراوي ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ١٩٧٩م، ٢٩٨. اذ كان من ضمن تعاليمهم ان لا يفدي الفارس من الداوية الا بسيفه ونطاقه ، ينظر هوارث ، فرسان الهيكل ، ١٣٧.

(٤) البنداري ، سنا ،٢٩٨.

(٥) عند فداء شاهنشاه بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه الايوبي ، ينظر العماد ، البرق الشامي ، ٣٩/٣؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٦٠/٢؛

(٦) ابن الاثير ، الكامل ، ١٢/ ٣٨؛ ابو شامة ، الروضتين ، ٥٧/٤؛ شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب النويري ، نهاية الارب في فنون الادب ، تحقيق : نجيب مصطفى و حكمت كشلي فواز ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ٢٠٠٤م ، ٢٨١/٢٨؛ ارنول ، ذيل وليم الصوري ، ٣٥٣.

أساليب متعددة في وصفهم منها ما يشبه الذم في وصفهم بعد أن سلموا بغراس[١]، " فعجبنا من انقياد اولئك الشُّمس"[٢] ، فالشُّمس هنا تعني العسر على من عاداه ونازعه ، و شمسً لي فلان إذا أبدى عداوته [٣] ، والشَمُوس من الدواب الذي إذا نُخِس لا يستقر أي كثير الهياج[٤]، ووصفهم :" شياطين الداوية المردة"[٥]، و يقصد بالشيطان المارد هو أعتاهم وأكثرهم قوة وحجما ، "والذي أعيا خبثا الشديد من الرجال" [٦] ، وتجلى وصفهم بالطاغوت في مواضع عدة منها ؛ " هوى طاغوتهم " ، " وطواغيتهم "[٧]، والطاغية : في العموم هو من علا وتكبر وتجبر على الناس والحق الاذى بهم [٨]، وعند تفاخرهم بقوتهم قال العماد :" ومع أدائنا الداوية الأوداء"[٩] وفي موضع لاحق قال عن هزيمتهم : " وكرثت أدواء الداوية"[١٠]، وعن فتح انطرطوس[١١] سنة ٥٨٤هـ/ ١١٨٩م" وامتنع برج الداوية لدائها الدوى ، واتبع مردتهم في

---

(١) بغراس : قلعة تقع ما بين مدينة انطاكية وقليقية الارمنية تبعد عن أنطاكية ١٢ ميلا ينظر ابو الفدا تقويم البلدان ، ٢٥٨-٢٥٩.

(٢) العماد ، الفتح ، ٢٥٨.

(٣) الخليل بن احمد الفراهيدي ، كتاب العين ، تحقيق : مهدي المخزومي وابراهيم السامرائي ، دار الشؤون العامة ، بغداد ، ١٩٨٦م ، ٦/٢٣٠.

(٤)ابو نصر اسماعيل بن حماد الجوهري ، الصحاح تاج اللغة وتاج العربية ،تحقيق : احمد عبد الغفور عطار ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٨٧م، ٣/٩٤٠؛ابن منظور ، لسان العرب ، ٦/١١٤.

(٥) العماد ، الفتح ،١٠٥

(٦) مجد الدين ابو السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن محمد الشيباني المعروف بابن الاثير ، النهاية في غريب الحديث والاثر ، تحقيق : طاهر احمد الزاوي و محمد محمود الطناحي ، المكتبة العلمية ، بيروت ،١٩٧٩م، ٤/٣١٥؛ ابن منظور ، لسان العرب ، ٣/٤٠٠.

(٧) العماد ، الفتح ، ٢٣٠.ابن الاثير ، الكامل ، ١١/ ٤٥٥.

(٨) الفراهيدي ، كتاب العين ، ٤/ ٤٣٥؛ ابو بكر محمد بن الحسين بن دريد ، جمهرة اللغة ، تحقيق: رمزي منير بعلبكي ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٨٧م، ٢/٩٢٩.

(٩) الفتح القسي ، ٦٥.

(١٠) المصدر نفسه ،١٦١.

(١١) بلد من سواحل بحر الشام وهي آخر أعمال دمشق من البلاد الساحلية وأول أعمال حمص ، ياقوت ، معجم البلدان ، ١/ ٢٧٠.

التمرد هوى طاغوتهم الهوى" [١] ، وعند فتح صفد :" وتخلصت الداوية بأدواتها وتملصت بأسوائها وصاروا الى صور وأبدوا بعد استطالتهم القصور " [٢] ، وفي وصفهم بمدينة صفد :"عش البلية " [٣].

وبالمحصلة فإن أوصافهم بين "الشمس – وشياطين المردة – طواغيتهم " ، فالعماد لا يصرح بمدحهم ، فاذا عُكِسَت وجدناها تدل على القوة والشجاعة والثبات على مبادئهم في المواجهة مع المسلمين الا أن ابن الاثير كان أكثر تحررا من العماد الذي اتصف خبره بالمتشنج بسبب المواجهة المستمرة خاصة في كتابه الفتح ، ولما كان ابن الاثير على طرف نقيض من السلطان صلاح الدين إذ كان مؤرخا للزنكيين فضلا عن كونه بعيدا عن خط المواجهة موقعا وزمنا ، فقال عنهم : " وكانت عادته (السلطان) قتل الداوية والاسبتارية لشدة عداوتهم وشجاعتهم " [٤]، وهنا أضاف " شجاعتهم" ، كما وصف شدتهم في إحدى المعارك بقوله : " وجرت بينهم (اي بين المسلمين والداوية والاسبتارية) حرب تشيب لها المفارق السود" [٥]، وفي موضع لاحق قال عنهم :" جمرة الفرنج "[٦]، والجمرة :كل قوم يصيرون الى قتال من قاتلهم لا يخالفون أحدا ولا ينضمون الى أحد [٧] ، وقد تأتي بمعنى الالف فارس [٨]، وجمَّر فلان جيشه إذا حبسهم في الغزو ولم يرجعوا الى اهلهم وبلادهم [٩]،وفي الحلات الثلاث في اعلاه يكون الوصف في محله إذا ما علمنا أنهم منقطعون عن ديارهم وأهلهم وكذا العدد ايضا .

---

(١)العماد ، الفتح، ٢٣٠.

(٢)المصدر نفسه ، ٢٦٩.

(٣) المصدر نفسه ، ٦٥؛ البرق ، ١٦٨/٣.

(٤) الكامل ، ٥٣٨/١١.

(٥) الكامل ،٥٣١/١١.

(٦) المصدر نفسه ، ٤٦٥/١٢.

(٧) الفراهيدي ، كتاب العين ،١٢٢/٦؛محمد بن احمد الازهري الهروي ، تهذيب اللغة ، تحقيق: محمد عوض مرعب ،دار احياء التراث ، بيروت ، ٢٠٠١م،١١ / ٥٢.

(٨) الجواهري ، الصحاح ، ٦١٦/٢.

(٩) احمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي ، مجمل اللغة ،تحقيق : زهير عبد المحسن سلطان ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٨٦م، ١٩٧/١.

وقد اشار ابو شامة الى المعنى ذاته بقوله : " وكان في صفد جمرة الداوية " [١]، " ووجوه الداوية عوابس "[٢]، وقد اشار هوارث من ضمن ميثاقهم الى : " ولا افراط في الحديث أو ضحك" [٣] ، والشواهد كثيرة في استقصاء ابو شامة بوصفه مؤرخآ استقى مادته التاريخية المبكرة للحروب الصليبية ممن سبقه امثال ابن القلانسي و العماد وابن الاثير وابن أبي طي [٤] ، وكان أهمية ما اورده ابو شامة ومن جاء بعده ، نقلا عمن سبقهم هو اقرارهم بذلك وفيه تصديق لما اورده السابقون .

وهكذا صرح أحد الشعراء المسلمين المعاصرين للحروب الصليبية في عدم مقاربتهم للنساء بقوله:

أرى داوَية الكفُار خـــافت	***	**به داءً يُضَعف كُلَ متـَنِ**
أبُو نسَلآ مَخافَة نسلِ بنتٍ	***	**تُفارِق دينَهم أو قَتْلَه ابــن**
فقد عقموا بـه غـير عَقُمٍ	***	**كما جَبّنوا به من غير جُبّن**
ومن افناهم عدماً حقيقٌ	***	**بحَمـُـدٍ مثلما وجدوا ويـغني[٥]**

وهنا زاوج الشاعر بين تدين هؤلاء وشجاعتهم وكان من بين ابرز تلك الشجاعة في اعتزالهم النساء وترهبهم ، وقد اشار ياقوت الى اعتزالهم النساء بقوله : " يحبسون انفسهم لجهاد المسلمين ويمنعون انفسهم من النكاح " .

وهنا لابد من الاشارة الى ما اورده الفيتري في ذات المعنى :" وقد اعرضوا عن الابهة وغرور الدنيا ومباهج وشهوات الجسد..." [٦]، واكد ذلك هوارث في اعتزالهم للنساء ، "

---

(١) الروضتين ، ٣/ ٢٦٨.

(٢) المصدر نفسه ، ١٨٤/٣.

(٣) فرسان الهيكل ، ٦٣.

(٤) للمزيد ينظر :منال محمود رشيد ، شهاب الدين ابو شامة مؤرخا للحروب الصليبية من خلال كتابه الروضتين في اخبار الدولتين النورية والصلاحية ، اطروحة دكتوراة (غير منشورة) مقدمة الى مجلس كلية الاداب جامعة الموصل ، ٢٠١٣.

(٥) العماد ، خريدة القصر وجريدة العصر ، القسم الاول ، تحقيق : محمد بهجة الاثري وجميل سعد ، مطبعة المجمع العلمي العراقي ، بغداد ، ١٩٥٥م، ٣٤٠/٢.

(٦)يعقوب الفيتري ، تاريخ بيت المقدس ، ترجمة وتعليق : سعيد البيشاوي ، دار الشروق ، عمان ، ١٩٩٨م، ٩٣.

فالنساء شر لا حد له إن صحبة النساء شيء خطير فمن خلالهم انكر علينا الشيطان في العيش في الفردوس..."[١].

اما ما افرده المؤرخون عن شجاعة مقدميهم ، فقد قال العماد عن مقدم الداوية الذي اسر في معركة مرج عيون سنة ٥٧٥هـ/١١٧٩م، : " مقدم الداوية الكبير وقد اشتهر في الفرنج باسه المبير " [٢] ، اما ابن شاهنشاه فقال عنه : " وكان مشهورا شجاعا شديد الباس"[٣]، اما مقدم الداوية الكبير في بيت المقدس الذي اسر بعد انتهاء معركة حطين فوصفه ابن الاثير بـ" من أعظم الفرنج شأنا " [٤] .

❖ **الوفاء بالعهد:**

ميَّز مؤرخو وكتاب الحروب الصليبية من المسلمين الداوية بالثبات على الموقف بين أقرانهم والالتزام بالعهود والمواثيق وقد أشار الى ذلك العماد الاصفهاني في أكثر من موضع ، وعلى الرغم من قسوة العماد في وصفهم الا انه لم يستطع تجاهل الحقيقة التاريخية في وفائهم بالعهود كصفة ايجابية منها أنهم وقفوا في وجه توجه أمير طرابلس وطبرية ريموند الثالث (Raymod 111) (٥٦٩-٥٨٣هـ/١١٧٤-١١٨٧م) ، في محاولته الاستيلاء على مُلك مملكة بيت المقدس ، فاعترضوا على ذلك فقال : " فلم تتم موافقة الداوية وقالوا يلزمك العمل بشرط الوصية " [٥]، وكان ابرز من وقف في وجه طموحات ريموند مقدم الداوية الكبير في بيت المقدس فلم يستطع ذلك وعدل عنه ، الامر الذي دفع الاخير الى التحالف مع السلطان صلاح الدين [٦]، وشاهد اسرى الداوية في معركة قرب عكا سنة (٥٨٣هـ/١١٨٧م) ، وقد اعترض عليه بعض الامراء الصليبيين في تلك الحادثة بوصفه خائناً ، " وقالوا له لاشك أنك

(١)هوارث ، فرسان الهيكل ، ٦١-٦٢.

(٢) البرق الشامي ، ١٦٥/٣.

(٣) مضمار الحقائق وسر الخلائق ، ١٧.

(٤) الكامل ، ١١/ ٥٣٧. وقد قال عنه هوارث بانه اشتهر بتهوره وتسرعه وهو من اسباب نكسه الصليبيين في حطين ، فرسان الهيكل ، ١٨٥-١٨٦ ؛ ينظر ايضا مقامي ، فرق الرهبان ، ٥٦؛ حسن حبشي ، الحرب الصليبية الثالثة ، ١٠٠.

(٥) العماد ، الفتح ، ٦٨؛ ينظر ارنول ، ذيل تاريخ وليم الصوري ، تحقيق : سهيل زكار ، دار الفكر ، بيروت ، ٢٠٠٣م ،٢٥٨-٢٦٢.

(٦) العماد ، الفتح ، ٦٨،

أسلمت"[١]، لم يكن هذا الموقف بين الصليبيين فقط وانما كان لهم موقف مشابه في الاعتراض على امير انطاكية في نيته الهجوم على بلاد ارمينية الصغرى فعدل عن ذلك [٢].

أما مع المسلمين فقد كان للداوية ذات المواقف في الثبات على الوفاء في العهد ، وقد أعرب المؤرخون العرب المسلمون في كثير من المواضع ، دون حرج !!، وسنتطرق الى ذلك على وفق التسلسل التاريخي للحادثة ، منها عندما أراد الملك عموري الاول: Amary1(٥٥٨-٥٦٩هـ/١١٦٣-١١٧٤م) [٣]، بتحريض من مقدم الاسبتارية الى نقض العهد مع شاور وزير الدولة الفاطمية والدخول الى مصر والسيطرة عليها ، فقالوا : " إن شاور لم ينقض شروط الهدنة بتاتا " [٤]، وعلى الرغم من انهم لم يستطيعوا ثني الملك عن غزو مصر الا انهم لم يشاركوا بتلك الحملة التي عدها بعض المؤرخين بالفاشلة ودفعت بالفاطميين الى الاستنجاد بالسلطان نور الدين زنكي (٥٤١-٥٦٩هـ/١١٤٦-١١٧٣م) ، وقد أشار وليم الصوري الى ذلك :" وبدا لهم (الداوية) أن اعلان الحرب ضد قوة صديقة كانت تعتمد عل نيتنا الحسنة كان خطأً ومخالفا لفحوى المعاهدة وتحديا للحق والعدالة " [٥].

أما الموقف الاكثر وضوحا عند الاتفاق مع الصليبيين في تسليم الاسرى الذين كانوا في عكا بعد التسليم للصليبيين سنة (٥٨٧هـ/١١٩٢م) ، وبعد مفاوضات بين الطرفين كانت عبارات العماد واضحة في ترجيح حفظ العهد والضمان في عدم المساس بالأسرى بقوله :" فقلنا لهم يضمنكم الداوية فما دخلوا في الضمان وساء فيهم ظن السلطان ..." [٦]، بيَّن النص بما لا يقبل الشك تفادي العماد الاصفهاني ما امتاز به الداوية الا أن ابن الاثير اطلق العنان

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، ٥٣٢/١١ . وهنا لابد من الاشارة أن القوات الاسلامية في معركة حطين تسمح لريموند الثالث الهرب من ارض المعركة ولا تتعرض له بسوء مما جعل بعض الشكوك تثار حول موقفه حتى في المعركة ؛ البنداري ، سنا البرق ، ٢٩٦.

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، ٤٦٥/١٢.

(٣) تولى حكم مملكة بيت المقدس بعد وفاة اخيه بلدوين الثالث اتصف بحسب وليم الصوري بالشجاعة والجرأة مطلع على مشاكل الشرق عرف في المرجع الحديثة باسم املريك الاول خامس ملوك مملكة الاتين في الشرق للمزيد ينظر ؛ وليم الصوري ، تاريخ الحروب ، ٢/ ٨٧٨؛ رنسيمان ، تاريخ الحروب ، ٢/ ٥٨٦؛ سيتون ، تاريخ الحروب ، ١٨٩، ٢٠٤.

(٤) دوره التخطيطي ، ٩٨-٩٩.

(٥) الصوري ، تاريخ الحروب ،٩٢٩؛ هوارث ، فرسان الهيكل ، ١٣٧؛ رجا ، الاسبتارية والداوية ، ٧٣.

(٦) الفتح القسي ، ٥٢٧.

للوصف الدقيق عنهم وتصور العرب المسلمين في وفائهم بالعهود : " وأن يضمن الداوية ذلك لأنهم أهل تديِّن يرون الوفاء " [١]، يعد هذا النص من النصوص المهمة التي اعترف مؤرخ كبير مثل ابن الاثير بمدح هذه الفئة التي ساق هو عنهم مع الكثير من المؤرخين صفات مشينة مثل التي سقناها من قبل، وبذلك تفرد بهذا النص ولا أظن انها زلة قلم ، وفيها اشارة الى احترام الداوية للعهد على عكس ما كان سائدا ، اذ عبر بعض الصليبيين على انهم متى ارادوا نقضوا العهد مع المسلمين بقولهم إنهم يحلفون لقوم لا يستحقون الوفاء (المسلمين) ، لكن الداوية اعترضوا عليهم فقالوا:" لا يهم لمن بل بمن نقسم" [٢].

وصرح ابو شامة عند اعتراضهم عن دخولهم في الضمان بقوله :" فقال الداوية لا نحلف ولا نضمن لأننا نخاف غدر من عندنا ..." [٣]،أصل الحال أن دخول ملوك الحملة الثالثة خاصة فليب اغسطس (Philippe Auguste) ملك فرنسا ، والملك ريتشارد الاول (قلب الاسد) (Richard1) جعل من موقف وضمان الداوية ضعيفاً ازاء فورة دم هؤلاء القادمين من اجل ادخال الرعب في نفوس المسلمين ، كما أنهم عدوا اتفاقهم مع امراء عكا غير ملزمٍ لهم وان قوتهم وجبروتهم لا تستدعي دخولهم في السلم مع السلطان صلاح الدين لاسيما وان الحملة هدفها القضاء على قوة المسلمين المتمثلة بالقوة العسكرية لدى الايوبيين ، ومن ثم نقض العهد بعد اخذ الاموال من السلطان صلاح الدين والحنث في الوفاء بالعهود المبرمة مع المسلمين ، والعودة الى بلادهم بعد تكليل تيجانهم بقداسة استرداد القدس من المسلمين .

وعند الحديث في التفاوض الذي سبق صلح الرملة بين السلطان صلاح الدين والملك ريتشارد ، كان التفاوض حول تزويج الملك العادل من اخت الملك ريتشارد ، وكان من شروط القبول : " وأن يضمن الداوية بما يقع الاتفاق عليه " [٤]، وقد يحتمل ذلك أكثر من تأويل ، الاول : أن الداوية قوة لا يستهان بها فبموافقتها يتم تنفيذ بنود الاتفاق ، والثاني : كسب الوقت لمعرفة الملك ريتشارد بموقف الداوية في عدم الموافقة على الزواج من امير مسلم[٥].

ونتيجة لما كان عليه الداوية من خلق الوفاء كان يسند إليهم الاعتناء بالأسرى من أمراء المسلمين ، فقد بقي شاهنشاه بن الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن ايوب

---

(١) الكامل ، ١٢/ ٦٨.

(٢) هوارث ، فرسان الهيكل ، ١٣٧.

(٣) الروضتين ، ١٥٧/٤؛ ابن خلدون ، العبر ، ٣٢٦/٥.

(٤) ابن الاثير ، الكامل ، ٧٢-٧٣.

(٥) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ١٩٦ ؛ رنسيمان ، تاريخ الحروب ، ١١٦/٣-١١٧.

عندهم أكثر من سبع سنين حتى فداه السلطان صلاح الدين بمال كثير[١]، وعند دخول ابن منقذ الى القدس اذ كان سفيرا لأمراء دمشق لأكثر من مرة تحدث عن علاقته بالداوية وسماهم بـ " أصدقائي" [٢]، وقد اتخذ الداوية مكاناً في الجهة الشمالية من المسجد الاقصى وهبها لهم الملك بلدوين الثاني(Balwin11) ٥١٢-٥٢٥هـ/١١١٨-١١٣١م [٣]، وسرد فيه رعايتهم له مع قبولهم له بالصلاة في مكان اخلوه له ، في تلك الاثناء يدخل صليبي حديث العهد بالمشرق ويؤذي اسامة في صلاته فيردوه عنه ويعود مرة اخرى ويعترض اسامة في صلاته فيعتذر الداوية من اسامة لما فعله الصليبي ، وهنا لابد من الاشارة الى معرفة الداوية بطقوس المسلمين في صلاتهم كما يقرون بأحقيته المسلم في صلاته في مكان يعدوه خالصا لهم ، والسؤال هل كان ذلك من آداب الضيافة ؟ ام اقرار بحق المسلم اي كان في الصلاة بذلك الموضع ؟.

❖ **التدنيس :**

أشير الى الداوية في أكثر من موضع بالنجس والقذارة ، وعلى الرغم من ذلك فقد أمعن المسلمون في سرد اسباب وصفهم بذلك ، والحق أن اختلاف الرأي فيهم كان مفاده تغليب أوجه وحالات الواقع السياسي والعسكري ، فهم أعداء خطرون لا ينفكون عن مقاتلة المسلمين ، بل وصفوا بأشد الصليبيين شوكة على المسلمين ، ومثلما برزت عبارات التديُّن لدى ابن الاثير صراحةً ، كان وقع التدنيس أوقع وعبرت نصوص عديدة عن ذلك منها ما ورد نقلا عن السلطان صلاح الدين : " أنا أطهر الأرض من الجنسين النجسين " [٤]، وفي رواية

---

(١) البنداري ، سنا ، ص١٣٠-١٣١؛ ابو شامة الروضتين ، ٢/ ٣٠٤؛ ابن واصل ، ٦٠/٢.

(٢) الاعتبار ، ١٣٤. جدير بالذكر فقد كان للداوية ثلاث طبقات أو اقسام الفئة الاولى فئة النبلاء والفرسان ومنهم يكون الامراء والمقدمين ، والثانية وتسمى بالوسطى أو البرجوازية وهي من المقاتل الفرسان والمشاة وهي الاقل شأنا ، أما الفئة الثالثة وهي فئة الرهبان المتعبدين ووظيفتهم تنحسر في شؤون التعبد ، ربما ابن منقذ التقى بالفئة الثالثة وهي الاقل تعصبا من الفئتين الاوليتين ؛ ينظر مقامي ، فرق الرهبان ،٣٤-٣٥.

(٣) هو ابن هيو الاول وابن عم جودفري وبلدوين الاول خلف بلدوين الاول على امارة الرها سنة ٤٩٤-٥١٢هـ/١١٠٠-١١١٨م ، ثم تولى ملك مملكة بيت المقدس سنة ٥١٢-٥٢٥هـ/١١١٨-١١٣١م ؛ ينظر وليم الصوري ، تاريخ الحروب ، ١/٥٦٥-٥٧٠.

(٤) العماد ، الفتح القسي ، ٨٦؛ ابن الاثير ، ١١/ ٥٣٨؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، ١٩٦/٢.

العيني ، " ثم قتل السلطان جميع من كان في الاسر من الداوية والاسبتارية صبرا وأراح الله المسلمين من هذين الجنسين النجسين " [١] ، ومعروف أن النجاسة على الارض لا تزال الا بالغسل وإعفائها من المكان [٢] ، كما زاد ابو شامة عبارة : " وهم أخبث أهل الكفر "[٣] ، والمعروف عند المسلمين أنهم عند دخولهم للخلاء (المرحاض) يستعيذون من الخبث والخبائث [٤].

وعند دخول السلطان صلاح الدين الى مدينة القدس والمسجد الاقصى ، وصف البنداري ما قام به السلطان من اعفاء لآثار المستحدث فيه من الصليبيين والداوية من ضمنهم بقوله :" وتنظيفها من الادناس وكنس ما في أرجائها من الارجاس " [٥]، وساق ابن واصل في ذات الموضوع عبارات مشابهه بقوله :" وتنظيفه وما حوله من الاقذار والنجاسات " [٦]، وكان الذهبي أكثر وضوحا في الوصف فقال :" مشغولا بالخنازير والخَبَث ... وبنت الداوية مساكن غربيه فيها المراحيض ... فبادر المسلمون الى تنظيفه وتطهيره " [٧] ، وكذا قال ابن كثير :" وأمر (اي السلطان) بتطهير المسجد والصخرة من الاقذار والانجاس " [٨]، والمعروف أن

---

(١) عقد الجمان ، ٦٣/٢-٦٤.

(٢) النجاسة : لغة القذارة ، وهي التي أمر الشرع بازالتها ، والنجاسة انواع وهي : ما يخرج من الانسان من بول وغائط ، الحيض عند المرأة ، بول وروث الحيوان ، الميتة ، لحم الخنزير .

(٣) الروضتين ، ١٨٠/٣ .

(٤) فقد ورد في الحديث النبوي : عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم (كان إذا أراد أن يدخل الخلاء قال : اللهم إني أعوذ بك من الخبث والخبائث) ؛ خرجه البخارى (١٩٥/١ ، ١٠٩/١١) و فى " الأدب المفرد " (رقم ٦٩٢) و مسلم ، ١٩٥/١، وأبو عوانة فى صحيحه (٢١٦/١) و أبو داود (٢/١) ، و ابن ماجه (١٢٨/١ (الخبُث) بضم الباء جمع خبيث، وهم ذكران الشياطين، و(الخبائث) جمع خبيثة وهن إناثهم. فكَأنه استعاذ من ذكران الشياطين وإناثهم ، ولها وجهٌ آخر وهو إسكان الباء: (الخُبْث): وهو الشر، (والخبائث): الذوات الشريرة. فكأنه استعاذ من الشر وأهله وذكر الخطاب ، أن إسكان الباء غلط من أغلاط المحدثين. والصواب أنه جائز ونقله النووي عن جماعة من أهل المعرفة.

(٥) سنا البرق ، ٣١٤ .

(٦) مفرج الكروب ، ٢١٧/٢.

(٧) تاريخ الاسلام ، (حوادث ٥٨١-٥٩٠هـ) ، ٢٦.

(٨)أبو الفدا إسماعيل بن عمر ، البداية والنهاية ،دار الفكر ، بيروت ، ١٩٨٦م، ٣٠٤/١٢.

بلدوين الثاني منح الداوية مقرا لهم في القدس واختاروا مكان يُعتقد في الموروث الديني لديهم أنه هيكل أو معبد سليمان (عليه السلام) [١]، وهو جزء من المسجد الاقصى ، ولذلك سموا بفرسان الهيكل أو المعبد .

وقد استحدث هؤلاء مبانٍي في المكان منها مساكن لهم واسطبلات يُظن أنها كانت موجودة في عهد النبي سليمان (عليه السلام) ، وإن ما يدل على دناءة الداوية وعدم احترامهم لمقدسات المسلمين هو جانب من تدينهم في اقتفاء ما ورد لديهم في الموروث الديني من تقليد للنبي سليمان (عليه السلام) فقد آلم ذلك مشاعر المسلمين وزاد في حنقهم عليهم خاصة في المسجد الاقصى والصخرة المقدسة .

وفي نص لاحق عند معركة ارسوف (٥٨٧هـ/١١٩٢م) الشهيرة التي خسر فيها السلطان صلاح الدين وانهزم جيشه كان وصف المسلمين للداوية بالنجاسة :" وأنجاس الداوية وأرجاس الاسبتارية " [٢]، وها نحن الآن في موضع الخاسر الحانق فنصب جام غضبنا قولا لا فعلا فالخسارة كبيرة دفعت بالسلطان الى اتخاذ تدابير دفاعية بعد أن كان مهاجما ، وهؤلاء الانجاس بعد اشهر عند المفاوضات قبيل صلح الرملة يُطلب من كلا الطرفين دخولهم في ضمان تنفيذ الصلح ؟!.

ولا بد أن نذكر ما قيل عن مقدم الداوية في معركة مرج عيون [٣] سنة (٥٧٥هـ/١١٧٩م) ، وقد وصف مقدم الداوية بالشجاع :" وكان مشهورا شجاعا شديد البأس"[٤]، وقال عنه العماد :" مقدم الداوية الكبير وقد اشتهر في الفرنج باسه المبير " [٥] وفي

(١) وليم الصوري ، تاريخ الحروب ،١/ ٥٧٨.

(٢) العماد ، الفتح ، ٥٤٣.

(٣) وتسمى حاليا مرجعيون : سهل تكثر فيه عيون الماء في الجنوب اللبناني ، قال عنه ياقوت من سواحل الشام ، معجم البلدان ، ١٠١/٤ ؛

(٤) عمر بن شاهنشاه الايوبي ، مضمار الحقائق وسر الخلائق ،تحقيق : حسن حبشي ، دار الهنا ، القاهرة ، ١٩٦٨، ١٧.

(٥) البرق الشامي ، ١٦٥/٣.وفي نص رسال ارسلها السلطان الى امير الموصل قال عنه : " والمقدم الكبير وهو الذي يرمي الاسلام بالاذى الدوية ، المصدر نفسه ، ١٦٩/٣.

ذلك تبيان لمقدرته العسكرية في قتال المسلمين ، وهنا وصف بعد أن وقع بالأسر[١]: " فطلبت جيفته بإطلاق اسير من المؤمنين " [٢] ، وهذه استهانة به وبوصف جثته بالجيفة .

ولا بد في هذا الموضع من ادراج نص وليم الصوري في صفة مقدم الداوية بقوله :" هو رجل شرير متكبر ومتعجرف سكنت في منخريه روح الحقد " ، اما عن موته فقال :" كان انسانا لم يخش الرب ولم يحترم الانسانية وقد حمله اشخاص عديدون مسؤولية الخسارة وخزيا دائما لا يموت بسبب الكارثة ، ويقال إنه توفي خلال ذلك العام اسيرا في سجن قذر فلم يحزن عليه احد"[٣] .

وعلى الرغم من وصفهم بالتزام العهود واصرار السلطان على دخولهم في العهود والمواثيق ، يدل على تناقض واضح في سرد المؤرخين لحوادث بعينها وتصرح بحقيقة كون هؤلاء خطر حقيقي على المسلمين مثلما هم ضمان حقيقي لتنفيذ العهود والمواثيق .

❖ **تشبيههم بالحيوانات :**

لم يقتصر وصف المسلمين لهم بالنجاسات والقذارة لكن تعدى ذلك الى تشبيههم بالحيوانات منها عند استرجاع المسلمين لمدينة بيروت " ورجمت بشهب النفاطات [٤] شياطين الداوية المردة وتعادت الاسود العادية على اؤلئك القردة " [٥]، والحقيقة أغلب تلك التشبيهات كانت لدى العماد الاصفهاني الذي اعتاد في وصفه وهو كاتب السلطان الملازم له ، على القدح والمدح بما يشبه الذم ، فتأليف الكتاب في حال الحرب أوجب عليه ذلك الاسلوب ، وفي نص استرداد حصن دربساك [٦] :" وكان عش الداوية بل عرينهم " [٧]، وفي وصفه للداوية

(١) للمزيد ينظر ؛ رجا ، الاسبتارية والداوية ، ٤٩-٥٠.

(٢) العماد الاصفهاني ، البرق ، ١٦٦/٣؛ ابن شاهنشاه ، مضمار الحقائق ، ١٨؛ ابو شامة ، الروضتين ، ٢٠/٣ .

(٣) تاريخ الحروب ، ١٠١٣/٢.

(٤) مفردها نفاطة وهي الة من النحاس تستخدم لرمي النفط على العدو في المعارك ؛ ينظر رينهارت دوزي ، تكملة المعجم العربية ، نقله الى العربية : محمد سليم النعيمي ، دار الرشيد للنشر ، بغداد ،١٩٨٠م ،١٠/ ٢٧٧.

(٥) العماد ، الفتح ، ١٠٥.

(٦) حصن دربساك : ذات قلعة مرتفعة ولها اعين وبساتين ، تقع في الشمال يميل الى عن بغراس وتبعد عنها نحو عشرة اميال ، ينظر البغدادي ، مراصد الاطلاع ، ٥٥٤/٢.

(٧) الفتح ، ٢٥٥.

في بغراس :" وهي للداوية وجار [١] ضباعها وغاب سباعها ... وهضبة رئالها [٢] ، ومذئَب ذئابها ، ومدب دبابها، وكوارة زنابيرها ومفازة خنازيرها ومرقب صقورها ومرقد نسورها ومكنس وحوشها ..."[٣].

إن توصيف الانسان بالحيوان شيء مشين لان الخالق كرمة وجعله في أحسن تقويم ، لكن التصرف في ذات الوصف سواء كان في تشبيه الفعل بالحيوان أو بصفاته أمر وارد جدا في ذكر العدو ، لذا فقد ساق الاصفهاني وغيره من المؤرخين صفات تدل على امتلاك الموصوف الشجاعة والمكر والدهاء ، وفي استخدام آخر لصفاتهم يوصفون بالقردة والذئاب والضباع ، وهنا لابد من الاهتمام بالتوصيف ؛اذ إن الذئب والضبع والنسر والصقر وحتى الدب والخنزير البري ، وكذا الدبابير من الحيوانات الخطرة .

فجاء التشبيه والتوجيه لغرض الحط من قيمة الموصوف مع خطورته ، وهذا يعني ما أخفاه الواصف للمتلقي ، هذا إذا ما علمنا أن كتاب : " الفتح القسي في الفتح المقدسي " قريء على اسماع السلطان صلاح الدين الايوبي في سنة (٥٨٨هـ/١١٩٢م) في مدينة القدس [٤]، لذا لم يعط العماد للصليبين اي صفة للمدح الا وبها الذم ظاهر ، ولم يكن السلطان هو من المتلقين فحسب بل من المدركين أن العديد من الاعمال ستكون محل اعجاب واطراء من الناس فحرص على سماع ذلك .

---

(١)والوَجارُ والوِجارُ: سَرَبُ الضَّبُعِ، وفي المحكم: جُحْرُ الضبع والأَسد والذئب والثعلب ونحو ذلك، والجمع أَوْجِرَةٌ ووُجُرٌ، شواستعاره بعضهملموضع الكلب قال ابن سيده: ولا أبعد أن تكون الرواية ضِباعُ وِجارٍ، على أَنه قد يجوز أَن تسمى الضباع كلاباً من حيث سَمَّوْا أَولادها جِراءً وفي التهذيب: الوِجارُسَرَبُ الضبع ونحوه إِذاحفر فأَمْعَنَ. وفي حديث الحسن: لو كنت في وِجار الضَّبِّ، ذكره للمبالغة لأَنه إِذا حفر أَمعن يعني جمع غِمْرٍ، وهو حَرٌّ يَجِدْنَهُ في صدورهن. وأَراد بالإِصرارِ اصْرارَ العطش. ينظر ابن منظور ، لسان العرب ، ٢٨٠/٥.

(٢) والرئل ابن ولد النعام ؛المصدر نفسه ، ٤٧٠/٢.

(٣) الفتح القسي ، ٢٥٧.

(٤) البنداري ، سنا البرق ، ٣٠١.

الخاتمة:

من خلال ما استعرضناه من النصوص التي وردت في المصادر العربية والاسلامية نخلص الى جملة نتائج وهي:

١. ظهر التناقض في عرض الآخر الداوية العدو المتشدد كرها لعدوه المسلم المقاتل، بين دنيء ونجس وبين شجاع وكبير ووفي .
٢. كان للداوية نصيب وافر من المباهاة في نصوص العرب المسلمين في إعلان النصر عليهم أو الهزيمة بسببهم .
٣. أسهم العماد الاصفهاني وابن الاثير ومن جاء بعدهما في رسم ملامح متغيرة وثابته للداوية اعطت ابعاد النشأة والتشكيل .
٤. أسهمت مصادر بلدانية مثل كتاب " معجم البلدان " ، في رفد كتب التاريخ ببعض سمات اولئك الفئة من الصليبيين وذلك يعود الى الخبرة التي تمتع بها المؤلف المعاصر لهم .
٥. بدا ابن الاثير في توصيفه للداوية أكثر موضوعية وحيادية عن غيره من المؤرخين على الرغم من اسهامه في التقليل من شأنهم تارة وتمجيدهم أخرى .
٦. حاول بعض المؤرخين اقحام الداوية على النص ليزيدوا من عنصر الاثارة والتشويق مثل ابن القلانسي وابن الاثير في كتابه الباهر، لما كان لهم من شهرة لدى المسلمين قبل غيرهم .
٧. مع كل ما قدمه المؤرخون المسلمون عنهم الا اننا نفتقد احيانا الى امر بالغ الاهمية هو تركيب الفكرة لدى المؤرخ في التغيير الذي اصاب هذه الفئة أو الهيئة الدينية حتى اصبحت محل استهجان ونفور من الصليبيين قبل المسلمين وانتهى بهم الحال الى محاكمتهم وحرقهم سنة (٧١١هـ/١٣١١م) في فرنسا مصدر الفكر الصليبي آنذاك .
٨. في الوقت الذي كان المسلمون عامة والقادة والملوك خاصة ينظرون الى هذه الفئة على انها محط استهجان وسخط وانهم أكثر الصليبيين قسوة ، والخيار الأفضل هو التخلص منهم الا ان المسلمين يعتمدون على ضمان الداوية للمواثيق والامانات ، وهنا تكون الحيرة التي حاول الباحثون جاهدين الوقوف عندها فكانت النتيجة انهم على المبدأ في الحرب وعند التفاوض والصلح .

المصادر

المصادر العربية والمعربة :

- احمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي ، مجمل اللغة ،تحقيق : زهير عبد المحسن سلطان ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٨٦م.
- ارنول ، ذيل تاريخ وليم الصوري ، تحقيق : سهيل زكار ، دار الفكر ، بيروت ، ٢٠٠٣م. رينهارت دوزي ، تكملة المعجم العربية ، نقله الى العربية : محمد سليم النعيمي ، دار الرشيد للنشر ، بغداد ،١٩٨٠م.
- الاصفهاني، عماد الدين، خريدة القصر وجريدة العصر ، القسم الاول ، تحقيق : محمد بهجة الاثري وجميل سعد ، مطبعة المجمع العلمي العراقي ، بغداد ، ١٩٥٥م.
- ابو بكر محمد بن الحسين بن دريد ، جمهرة اللغة ، تحقيق: رمزي منير بعلبكي ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٨٧م.
- جمال الدين محمد بن سالم بن واصل ، مفرج الكروب اخبار بني ايوب ، تحقيق : جمال الدين الشيال ، مطبوعات ادارة احياء التراث القديم ، المطبعة الاميرية ، القاهرة ، ١٩٥٣م.
- حمزة بن اسد بن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ، تحقيق : سهيل زكار ، دار احسان ، بيروت ، ١٩٨٣م.
- الخليل بن احمد الفراهيدي ، كتاب العين ، تحقيق : مهدي المخزومي وابراهيم السامرائي ، دار الشؤون العامة ، بغداد ، ١٩٨٦م.
- ابو شامة شهاب الدين ابي محمد بن عبد الرحمن بن اسماعيل بن إبراهيم ، الروضتين في اخبار الدولتين، تحقيق : إبراهيم شمس الدين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ٢٠٠٢م.
- شهاب الدين ابي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي ، معجم البلدان ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٩٥٥م.
- شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب النويري ، نهاية الارب في فنون الادب ، تحقيق : نجيب مصطفى و حكمت كشلي فواز ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ٢٠٠٤م.
- عز الدين علي بن ابي الكرم بن الاثير الشيباني ، التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية ، تحقيق : عبد القادر احمد طليمات ، دار الكتب الحديثة ، القاهرة : ١٩٦٣م.
- عز الدين علي بن ابي الكرم بن الاثير الشيباني ، الكامل في التاريخ ، دار صادر ، بيروت : ١٩٦٦م.

- عماد الدين محمد بن محمد الكاتب ، البرق الشامي ، تحقيق : فالح حسين ، مؤسسة عبد الحميد شومان، عمان ، ١٩٨٧م.
- عمر بن شاهنشاه الايوبي ، مضمار الحقائق وسر الخلائق ،تحقيق : حسن حبشي ، دار الهنا ، القاهرة ، ١٩٦٨.
- الفتح القسي في الفتح القدسي ، تحقيق وشرح وتقديم : محمد محمود صبح ، الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٥م.
- الفتح بن علي بن محمد البنداري ، سنا البرق الشامي ، تحقيق : فتحية النبراوي ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ١٩٧٩م.
- ابو الفدا اسماعيل بن علي بن محمود ، تقويم البلدان ،اعتنى بتصحيحه : رينو ديسلان ، دار الطباعة السلطانية ، باريس ، ١٨٤٠م.
- أبو الفدا إسماعيل بن عمر ، البداية والنهاية ،دار الفكر ، بيروت ، ١٩٨٦م.
- مجد الدين ابو السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن محمد الشيباني المعروف بابن الاثير ، النهاية في غريب الحديث والاثر ، تحقيق : طاهر احمد الزاوي و محمد محمود الطناحي ، المكتبة العلمية ، بيروت ،١٩٧٩م.
- محمد بن احمد الازهري الهروي ، تهذيب اللغة ، تحقيق: محمد عوض مرعب ،دار احياء التراث ، بيروت ، ٢٠٠١م.
- محمد بن عثمان بن قايماز الذهبي ، تاريخ الاسلام ووفيات المشاهير والاعلام ، تحقيق : عمر عبد السلام تدمري ،ط٢، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٩٩٨م.
- محمد بن مكرم بن منظور ، لسان العرب ، دار صادر ، بيروت ، ١٤١٤هـ.
- ابو نصر اسماعيل بن حماد الجوهري ، الصحاح تاج اللغة وتاج العربية ،تحقيق : احمد عبد الغفور عطار ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٨٧م.
- وليم الصوري ، تاريخ الحروب الصليبية او الاعمال المنجزة فيما وراء البحار ، نقله الى العربية وقدم له : سهيل زكار ، دار الفكر ، بيروت ، ١٩٩٠م.
- يعقوب الفيتري ، تاريخ بيت المقدس ، ترجمة وتعليق : سعيد البيشاوي ، دار الشروق ، عمان ، ١٩٩٨م.

المراجع العربية والمعربة :

- ستيفن رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، ترجمة : البز العريني ،دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٩٧م.
- ستيفين هوارث ، فرسان الهيكل (القصة الاساسية) ، ترجمة : إبراهيم محمد إبراهيم ، المركز القومي للترجمة والنشر ، القاهرة ، ٢٠١٣م.
- كينيث سيتون ، تاريخ الحروب الصليبية ، (مجموعة بحوث باشراف كينيث ستون – ماخوذ من بحث تطور الدويلات اللاتنية ، لروبرت .ل.نيكلسون ، ترجمة عبد الرحمن المغربي.
- محمد مؤنس عوض ، تاريخ الحروب الصليبية ، التنظيمات الدينية في مملكة بيت المقدس اللاتينية في القرنين ٦-٧هـ/١٢-١٣م ، دار الشروق ، عمان ، ٢٠٠٤م.
- نبيلة إبراهيم مقامي ، فرق الرهبان الفرسان في بلاد الشام ، مطبعة جامعة القاهرة والكتاب الجامعي ، ١٩٩٤م.

الرسائل والاطاريح:

- احمد شهاب احمد، الاسبتارية والداوية في المصادر العربية الاسلامية ، رسالة ماجستير (غير منشورة) مقدمة الى كلية التربية للعلوم الانسانية ،جامعة الموصل ، ٢٠١٦م.
- منال محمود رشيد ، شهاب الدين ابو شامة مؤرخا للحروب الصليبية من خلال كتابه الروضتين في اخبار الدولتين النورية والصلاحية ، اطروحة دكتوراة (غير منشورة)مقدمة الى مجلس كلية الاداب جامعة الموصل ، ٢٠١٣.

المصادر الأجنبية:

- Condar,The Latin Kindom of Jerusalem,London,1897.
- Stevenson , W.B , The Crusaders in the East ,Second Edition, Beirt.